واقع الكاتب العربي في اسرائيل

بقلم محمود درويش

أيها الاصدقاء المحترمون (*) ..

اسمحوا لي ان اعلن هنا اني أشعر بالسعادة . اني اتكلم بصفة شخصية ، ولكنني قد اعبر عن مشاعر زملائي الكتّاب والشعراء العرب المضطهدين في اسرائيل،والذين يدافعون عن حقهم في التنفس وعن حق شعبهم في الحياة .. وظهورهم الى الحائط . ان المعركة التي نخوضها في بلادنا هي معركة الانسان المسحوق الذي يرفض الاعتراف بالموت . كل قوى التقدم في العالم تعلن تضامنها مع الشعوب العربية ، ومن بينها الشعب العربي الفلسطيني، في كفاحها العادل ضد العدوان الاسرائيلي على اراضيها وتاريخها وحقوقها . ولكن هذا الرأي العام العالمي لا يعرف كثيرا عن البقية الباقية من الشعب العربي الفلسطيني التي تعيش في اسرائيل وتتعرض لمختلف اشكال القهر والاضطهاد منذ اكثر من عشر ين سنة . وانتم تعرفون ، ايها الاصدقاء ، ان الصهيونية في الممارسة اعتمدت على شعارين اساسيين لتحقيق اهدافها . هذان الشعاران هما : احتلال الارض ، واحتلال العمل . وهكذا ، تزاوج منذ البداية جانبا الاضطهاد الذي يتعرض له الانسان العربي في اسرائيل !

الاضهاد القومي ، والاضطهاد الطبقي

ونحن هنا في مؤتمر كتّاب . وهذا يستدعي مني ان الفت نظر الكتّاب الاسيويين ـ الافريقيين الى واقع الكاتب العربي المقيم في اسرائيل ، هذا الكاتب الذي كان يشعر بالمرارة المشروعة من نجاح السلطة الاسرائيلية في حصر صوته في مكان ضيق . ان اجمل اعمالنا الادبية كتبت في السجون .. في السجون السياسية وفي السجون المعنوية .. في السجون العلنية وفي السجون السرية . ونحن لا نستطيع ، حتى الان ، ان نمارس ابسط حقوق الانسان ، اعني حق الانسان في التعرف الى وطنه .

ان وطننا صغير ، صغير كحذاء طفل ، ونحن محرومون من حرية ان نراه . ونحن لا نستطيع اللقاء بقرائنا ان كل شعرائنا وكتابنا خاضعون لاوامر الاقامة الاجبارية العسكرية التي تمنعهم من مغادرة اماكن سكنهم ، واحيانا تمنعهم من مغادرة بيوتهم منذ غروب الشمس حتى شروقها . حتى اشعار الحب ، ايها الاصدقاء ، لا يسمح لنا بنشرها الا بعدما تمر تحت يد الرقيب العسكري. ولكن صوت الشاعر .. صوت الحرية .. صوت الارض لا يمكن ان يحبس في زجاجة ، ولا يمكن ان يعتصر كما لا يمكن اعتصار الظل . واصواتنا هي ظل الارض .

ومن هنا ، اقول اني اشعر بالسعادة . لقد كانت القصيدة بطاقة الى السجن في بلادي ، ولكنها الآن بطاقة حب الى قلوبكم . ولقد منحتموني من الحب ما يجعلني اطمئن الى اني سلكت الطريق الصحيح ، ودفعت الضريبة التي لا بد من دفعها لكي اكون جديرا بضم صوتي الى نشيدكم الرائع . لا . ليست الجائزة التي منحتموني اياها امس باقة زهر على قبر ضائع ، ولكنها باقة زهر لميلاد شعبي المتجدد . لقد قتل شعبي كثيرا.. سنة بعد سنة .. مجزرة وراء مجزرة ، ولكنه دائما يهب من الانقاض واقفا ، وقد تعلم كيف يمارس حريته الوحيدة .. حرية اختيار الموت في سبيل الحياة . والمناضلون ـ وحدهم ـ قادرون دائما على تغيير المفاهيم. وهكذا يصبح مفهوم الموت ـ مفهوم الحياة .

ونحن جزء من هذا الشعب الذي يخدش وجه الموت . ان انتماءنا ليس وجهة نظر وليس رأيا للمناقشة. انه حقيقة تاريخية حاولت الصهيونية ـ ولا تزال ـ تشويهها . ولكن كل محاولات ترويضنا وتدجيننا باءت

(*) كلمة القاها الشاعر في مؤتمر نيودلهي للكتاب الافريقيين الاسيويين .

بالفشل . ونحن نقول دائما ان الموقف الذي تتخذه السلطة الاسرائيلية من المواطن العربي في اسرائيل هو المحك الحقيقي لنواياها فيما يتعلق بمستقبلها في الشرق العربي. فاذا كانت هذه السلطة قد فشلت في التوصل الى سلام مع العربي المقيم في اسرائيل ، فليس من حقها ـ خلقيا ـ ان تتظاهر بالطموح الى السلام مع دول !. لقد صنعت منا برهانا عميق المنطق والدلالة على حقيقة نواياها .

واننا نشعر بالاهانة لاننا مضطرون الى الاعلان دائما اننا لسنا شوفينيين . هذه هي التهمة التي توجهها الينا السلطة التى تشكل مركز الشوفينية والتعصب القومي في الشرق الاوسط ، واحد مراكز العنصرية في العالم. ان القاتل هنا يتظاهر بالبكاء . وطيارو الفانتوم الذين يقتلون الاطفال العرب ويهدمون المصانع العربية يتظاهرون بالبكاء . وجنرالات العدوان يتظاهرون بالبكاء . لقد اصبح التظاهر بالبكاء جواز سفر الحكام الاسرائيليين الى الرأي العام العالمي . ومن المؤسف ، انهم استطاعوا تضليل بعض اوساط هذا الرأي العام فصدقهم .. وصدق انهم يريدون السلام .

ونحن ، لا نبارز هذا الاسلوب الخبيث بالطريقة ذاتها . اننا لا نحتكم الى الاساطير القديمة لنبرر شرعية وجودنا وحقنا . اننا نحتكم الى الواقع والى مبادىء العدل. والحقيقة السهلة هي ان الاديب العربي في اسرائيل يدافع عن كرامته وعن كرامة شعبه ، ويحافظ على طابعه القومي دون ان يصطدم ذلك مع موقفه الانساني . نحن لسنا مذنبين لاننا نحمل بطاقة هوية اسرائيلية . ان منحنا هذه البطاقة ليس منة وليس صدقة . لقد اخترنا البقاء في وطننا . ومن يسمح لنا بالاستمرار انما يفعل ذلك مرغما .. لاننا صامدون . وهذا وطننا ، لاننا ولدنا فيه . فهل نحن شوفينيون لاننا نريد البقاء في وطننا ؟ وهل نحن شوفينيون لاننا نقول ان السلام والعدوان لا يشكلان معادلة سليمة ؟ وهل نحن شوفينيون اذا قلنا ان السلام مفهوم يختلف عن مفهوم الاستسلام ؟

اننا نؤمن بامكانية ان يعيش العرب واليهود معا ، فالتاريخ العربي لم يعرف العداء لليهود . ولكن لماذا لم تتحقق هذه الامكانية ؟ لان الصهيونية ـ بمساندة الامبريالية هي التي تريد فلسطين بدون عرب . وهي لا تعترف ، حتى مجرد اعتراف شكلي ، بوجود الشعب العربي الفلسطيني .

لسنا شوفينيين . نحن ضحايا الشوفينية ، ولكننا من الناحية الاخرى لا نأخذ الحكمة من الجلاد الذي كان ضحية النازية ، ولم يتعلم من هذه التجربة القاسية الا تقليد قاتله في قتل الاخرين . وهنا ، اسمحوا لي ان اشيد بمواقف بعض العناصر والقوى الاسرائيلية وعلى رأسها الحزب الشيوعي الاسرائيلى ، التي تحارب هذه الحكمة القاتلة ، وترى ان الاعتراف الصريح والعملي بحق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره الحر هو وحده الذي سيحرر الشعب اليهودي من كارثة قومية يقوده اليها حكام اسرائيل . ان المصالح الحقيقية للشعوب لا تتناقض ، واذا بدا هنالك تناقض ، فان ذلك يشير الى وجود خطأ فادح .وحكومة اسرائيل ترتكب اخطاء مميتة بحق شعبها قبل كل شيء ، باغتصابها حقوق الاخرين.

هذا هو وجهنا الحقيقي .. هذا هو ضميرنا . واننا نجد في بلادنا صعوبة فائقة في تطهير وجوهنا من الزيف، ونجد صعوبة في الكلام .. ولكننا نتكلم وندفع ثمن الكلام. ان اشعار السجون قد وصلت اليكم، ايها الاصدقاء الاعزاء ، وهذا اللقاء ذو الجمال اللاذع يهبنا طاقة هائلة على الصمود ، ويشكل برهانا عميق المنطق والحيوية على هزيمة السلطان امام القصيدة . لقد اعطيتمونا فأسا كبيرة فتحنا بها طاقة في الزنزانة التي اصبحت عارية امام الشمس والعيون . شكرا لكم ايها الاصدقاء .. اننا اكثر من اصدقاء واكثر من حلفاء . نحن اجزاء تكمل بعضها . وسنشعر بعد الان بمزيد من الثقة ما دمتم معنا. ان عذابنا ليس بلا نتيجة ، واجراسنا ليست مختنقة ما دمتم معنا ، اننا نزحف معكم في كل مكان .. في غابات افريقيا المستيقظة وفي سهوب اسيا المنطلقة . لا اسماء لنا ، وماذا يهم الاسم !. نحن رموز .. نحن صوت .. نحن قضية . والسكين التي تغوص في لحم واحد منا تثيرنا جميعا . ومن حسن حظنا ان ابناء ثورة اكتوبر معنا .. ابناء الثورة التي غيرت مناخ الكرة الارضية ومزاجها . يسعدنا كثيرا اننا اصدقاء ابها الاصدقاء السوفييت .

ومن حسن حظنا ان اروع الاساطير معنا . اساطير تمشي على اقدام ، اساطير ابطالها بشر . ان الفيتناميين معنا . شكرا لكم ايها الاصدقاء الفيتناميون لانكم اصدقاؤنا ومن حسن حظنا اننا هنا في ضيافة اصدقائنا الكتاب الهنود على ارض الهند العريقة .. الهند التي تجدد نفسها .. شكرا لكم ، وارجو ان تنقلوا اعمق مشاعر الامتنان الى شعبكم والى رئيسة الوزراء السيدة اللطيفة انديرا غاندي .

ومن حسن حظنا ان كل واحد منكم معنا . . كلنا معنا ونحن بدون اسماء . نحن اوركسترا واحدة يعزف كل واحد منا فيها على آلته الصغيرة ، فلنضع لحمنا على الاوتار . ان صوت اللحم هو الذي يغني !

محمود درويش